الملاك الاوّل (١)

سبقتُ والقيتُ خطبة موضوعها « السماء الاولى » وما عنيتُ حينئذٍ بالسماء الاولى ديارَ الابدية . جنان الخلود مسكنَ الابرار بعد الموت . ولا عنيتُ بها هذا الجلَد البديع الذي رصعتهُ يد مبدع الاكوان بالكواكب والسيارات . ولا وصفتُ بها قصراً ملكيًّا او صرحًا خياليًّا . بل عنيت بها « البيت » الذي هو مقرُّ هناء الرجل والمرأة ومستوطنُ سعادة البنين والبنات . ومستظلُّ المرأة ومملكة الأم . ومراح الرجل ومتنزه الاب ومرتعُ هناء البنين ومسرحُ مسرّاتهم

وبما انهُ كلما تذكرُ السماوات يخطر على البال ذكر الملائكة معها حتى اصبح الاسمان كالمترادفين كلُّ ملازمٌ للآخر لا سماء بلا ملائكة ولا ملائكة بدون سماء ارتأيتُ انا اذ ذاك ان لا اترك سمائي الاولى بدون ملائكة ترفرفُ فيها وتحوم حول سكانها . الآنَ هذه الملائكة ليست اجساماً ذوات اجنحة رفرافة . ولا هي صور رؤوس جميلة ذوات تيجان لمّاعة . ولا هي مشخّصة بنساء بارعات في الجمال بالغات حدّ الكمال في الاخلاق والصفات . ولا هي صور اطفال جميلة طاهرة . لا ليس الملاك الاوّل شيئاً من كل هذا . انما هو يا سادتي مجسم في فضيلة تجعلُ المصائبَ سعادةً والظلامَ نوراً باهراً . مجسم في فضيلة تعزّي الارواح المثقلة باتعاب ونكبات هذه الحياة وترفعها من على هذه الارض الى العلويات

ملاكي في هذه الليلة اراهُ مجسماً في خلقٍ أرجو ان تصوّر لكم كما صوّرت لي مراراً الابدية وسعادتها . الا وهي « البشاشة » التي تزيدُ الجسم صحةً والعمر طولاً والحياة سعادةً

ولمّا كان قد عهد اليك ايتها المرأة بتهذيب النفس والبحث عن الاوبيات . لمّا كان قد عُهد اليك بتقويم انفس الصغار ودلهم على الطرق القويمة الموصلة الى دار الخلود بينما يكون زوجك منهمكاً في التجارة والصناعة يخوضُ عُباب البحار في طلب الرزق فقد رأيتُ أن اوجّه كلامي اليك وادلّك على مرآةٍ تنعكس منها صورة البشاشة ومعانيها وتتجلّى لك تلك المثلة المقدّسة فتستنيرين بنورها الحقيقي وهي

الوجه الطلق

هو السراج الذي تستضيءُ به القلوب وترتاح اليهِ الروح هو الذي يستمطرُ سحُبَ

(١) خطبة نطقت امام جمعية تهذيب الفتاة السورية في بيروت وهي جمعية اعضاؤها نخبة من فضليات السيدات السوريات

الانس فينفي الهموم ويحلو الاكدار . تفنين حياتك ياسيدتي في ايجاد ما يجملك ويحسّن حيتك ويقربك من بعلك ويحرّم فيثور خدّاك وتبيض بشرتك وينحل خصرك ويزداد تفتنك في اللباس والزي ومع هذا فلا تزدادين الاّ بعداً عن زوجك وذوي قربائك ولماذا لانك صرفت اهتمامك بالقشور دون اللباب وكثيرة ما هي هذه القشور فتملأ حياتك بالهم والاهتمام وتعمي بصيرتك عن الحقيقة فيتقطب جبينك ويتاويك القنوط ويراوحك ويخاطبك اليأس ويصافحك تثاقل اذ ذاك طلعتك ويصير وجهك كأنهُ ايام المصائب وليالي النوائب فينجفيك القريب والنسيب ويبعد عن مجالستك الصديق والحبيب ولا عجب فان مجالسة غير البشوش تثير الهموم وتجلب الغموم وتؤلم القلب وتطوي الانبساط فليكن وجهك بشوشاً تستقبلك القلوب وتتشربك العيون . وتتهافت الناس الى مجالستك ايما تهافت حاسبين انهُ الجنّة نفسها مجتناةً من قربك

إن المرأة ذات الوجه الطلق والقلب الواسع هي في الحقيقة ملكةٌ حيثُ حلّت لها قوّة على اعظم النوائب فترفعها عن زوجها واخيها بسالة غريبة صادّةً سُبلَ الحوف والتعاسة منتصرةً على القوى الطبيعية بقوّة البشاشة المستمدّة من قوّة الحبة

فسلامٌ على من كان نصيبهُ وجهاً بشوشاً . سلامٌ لهُ وسلامٌ عليهِ فان تأثيرهُ في الناس كتأثير الشمس المشرقة في الغابات والرياض يُقوّي الضعيف ويشجع البائس . فاذا تصبّحت به يوماً فكأنك اكتسبتَ منهُ نشاطاً يتدرّكَ على اتعاب ذلك اليوم . واذا تسنّى لك وصافحتهُ هزّ يدك هزّةً مخلصةً تولّدُ فيك ارتجاجاً يقوي اعصابك . واذا كلمتهُ انتشتَ بنغمة صوته وتجدّدت فيكَ قوّى تلقى بها اعمال نهارك باللذّة والمناء مهما كانت ثقيلة

سلامٌ على الحيا الطلق وسلامٌ لهُ لانهُ يرسل شعاعاً وسعادةً من حيث لا يدري . وهو ليس بذاك الاّ كالازهار التي تنمو في الطبيعة تعطّرُ الهواء بارجها وتبهج العيون بالوانها وهي لا تدري بتأثيرها بل تسير في نموّها تمتصُّ غذاءها من الهواء والارض كأنها لم تخلق الاّ لعملها هذا

طوباكِ يا ذاتَ الوجه البشّاش فأنك مصدر كل القوى المدنية والتمدن الحقيقي . وطوبى لمن كان الابتهاج شعارهم والابتسام منارهم . لك لك اذاً ايتها المرأة اقول

اتشمي ولماذا ؟

لأنّك انت المطالبة بالحنان على اغراس الانسانية . وهذه الاغراس كثيراً ما يعروها الذبول فتحتاج الى حرارة من قلبك كي تحييها معائب الدهر اكثر من نبات الارض .

قال كاتب شهير ان هذا العالم ينشر الضباب والظلام على كثير من الناس وتسعة اعشار من تلقاهم يومياً يحتاجون الى نفور باسمة كي تخفف عنهم ويلاتهم فهل للثغر البسام فعلٌ وتأثير في المصائب والاكدار؟ نعم! انهُ لضربةٌ قاضيةٌ عليها. فابتسامة اخلاص خارجة من صميم قلب المرأة ونسمة سرور تهبّ من روحها لقدر ان ترفع الارواح الرازحة تحت عبء الحياة الى الطبقات العلوية التي سمحَ للارواح ان تتنسمها وهي على هذه الارض

ابتسامةُ اخلاص منك ايتها الادبية تحوّل المصائب سعادة والظلام نوراً باهراً وهناك الهناء اذا اتى الابتسام من عينيك متألقاً من بين اجفانك فانهُ لا يعزّي الانسان فقط بل يصوّرُ لهُ الابدية وسعادتها. اوليست عيناك مرآة نفسك؟ يقولون كما يديه الجميل جميل فكيف لو كانت النفسُ جميلة وبماذا نصف تأثيرها. ليس من الضروري ان تكوني جميلة ليكون لك ولابتساماتك تأثير. وقد سمعتك مراراً تقولين ان فلانة ليست جميلة بل هي موهومة قريبة من القلب وأخرى بديعة في الحسن ولكنها اثقل من الكابوس. فما هو سبب هذا التجاذب وعدمهُ يا ترى. ليس الاّ ان الاولى بشاشة بسّامة قد كتب الله يبدو على صفحة وجهها ابتسامات الاخلاص وعواطف الانس والثانية عارية من كل عاطفة شريفة تمثل زهرةً بلا عطر وجمالاً بلا قوة. البشاشة لا تمثّلُ على فمك فقط بل على كل ملامح وجهك فضحي وراءهُ سرّ الشعور بالشكر لله ومحبة للانسانية فيخرج من بين اجفانك نور يكشف نور الشمس و يدخل الحياة بين حولك و يتدفّق منك البشر والحبور ونقرأ المواعظ المفيدة في كل ملامحك وتصير كل بقعة في الارض تأهّلُ بك كما تأهّل بالشمس الشارقة

دخلت ابنة معرض زهور في اوربا و بيدها اصيص من الخزف فيهِ نباتة مزهرة وبعد الفحص نالت نباتتها جائزة الامتياز على النباتات التي من جنسها. فسألها احد الفاحصين وكان يعرفها كيف تيسّر لك تربية هذه الزهور و بيتك لا تدخلهُ الشمس مطلقاً. فاجابتهُ يا سيدي ليتنا كوّة صغيرة تدخل منها الشمس فكنت احمل هذه النباتة واعرضها لاشعة الشمس وكنت اذا غابت الشمس عن بيتنا احملها والف بها خارجاً تابعة اشعة الشمس اينما ذهبت

ماذا كان يحلّ بالذين يعيشون بين جدران الالم من عام الى عام. بابناء المصائب والنكبات. بابناء الغمّ والبلاء لولا هؤلاء البشاشين الذين كأن الله لما خلقهم لم يخلق معهم لا حامضاً ولا مرّاً. هؤلاء الذين يحملون معهم شعاع السرور اينما ذهبوا الشعاع الذي هو شفقة على الفقير ورأفة بالبائس المسكين. وجه البشوش اشبه شيء بالبسابورت اي جواز المسافر يجيز لهُ المرور في كل مكان. يحلّ قيود الحسد والحقد لانهُ يريد الخير لكل الناس. فالبشاشة البشاشة

ايتها المرأة. اخالك تقولين انهُ لامرٌ هين على من كانت السعةُ تحيط بهِ وكل وسائل الراحة متوفرة لديهِ ان يبتسم و يبتهج و يبشّ بوجهِ للجميع ولكني أؤكد لك أنّ هؤلاء الاشخاص تكون ابتساماتهم في غالب الاحيان قاسية باردة لا حرارة فيها ولا معنى بخلاف من تألم وذاق من اصناف العذاب الوانًا فانّ في ابتساماتهِ وملامح وجههِ مواعظ تعجزُ عن إدائها ابلغ الواعظين فلا تحسبي اني بالتحريض على البشاشة احاولُ أن احملك على احتقار الخطوب وعدم المبالاة بها كلاّ انّ الرزايا تجلو النفوس وتمحصها فاذا حلّت بك لا سمح الله مصيبةٌ فلا تعرضي عنها بل تلقيها بايدٍ مفتوحة ولو كانت اتونًا من النار. ادرسي تلك المصيبة تتبعي اسبابها ونتائجها بكل تصبر ومن ثمّ اجتني منها المثالة الذهبية فتزدادي عذوبةً وبشاشةً. أقليس بالنار يستخلصون الذهب و يمحصونهُ ؟ قال ارسطو ان المصاب يصير جميلاً اذا تلقاهُ المصاب بالابتهاج ليس بعدم الحس وجمود القلب بل بصدرٍ رحب وجنان ثابت ونفس كبيرة

لما سئل كرسون الشهير عن حالهِ وهو في السجن في مدينة بوستن اجاب سائليهِ لماذا تهتمون بي وتندبون وحدتي فاني لست وحدي في هذا المتنى المظلم بل معي رفيقان منعشان للغاية وهما الضمير الصالح والعقل الفرح

فافرحوا وابتهجوا . ولماذا ؟

لان الابتهاج كما قال احد الاطباء هو الدواء الموحى بهِ من الله ويجب على كل انسان ان يستخدم بهِ يوميًّا . فالهمّ وضيق العيش والكآبة وكل الامور التي هي كمضاد على الحياة يجب ان تدهن بزيت الابتهاج

نبغ طبيب في مدينة نيو يورك لم يكن يُعرَف الاّ بالدكتور الضحوك وقد ذاعت شهرتهُ واعتقد بمهارتهِ الوف من الناس وهو لم يكن يصف الدواء الاّ نادراً

قالت اللانست وهي من اهم المجلات الطبية « ان قوّة الابتهاج ذات اهمية كبرى للمريض والضعيف تشفي الاوّل من بعض الامراض وتساعد الثاني على مقاومة المرض والتمتع بحياةٍ طويلة ولو كان المرض حليفهُ » اذاً من اهم واجبات المهذبين تربية العقول على هذهِ المثلة بقدر الامكان وتعليم الصغار ان يقابلوا دواعي الحزن بخواطر راضية قانعة لحكم الطبيعة لان الروح الفرحة ليس من شأنها تخفيف الوجع فقط بل هي بلا شك تزيد قوّة المواد المحركة في الجسد (ستأتي البقية) جوليا طعمه.